قصة الذبيح .

قال ا تعالى : { وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين * رب هب لي من الصالحين * فبشرناه بغلام حليم * فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء ا من الصابرين * فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين * إن هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم * وتركنا عليه في الآخرين * سلام على إبراهيم * كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين * وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين * وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين } .

يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه سأل ربه أن يهب له ولدا صالحا فبشره ا بغلام حليم وهو إسماعيل عليه السلام لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل لأنه أول ولده وبكره .

وقوله : { فلما بلغ معه السعي } أي شب وصار يسعى في مصالحه كأبيه قال مجاهد : { فلما بلغ معه السعي } أي شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل .

فلما كان هذا رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا وفي الحديث عن ابن عباس مرفوعا : [رؤيا الأنبياء وحي] قاله عبيد بن عمير أيضا .

وهذا اختبار من ا D لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه على كبر وقد طعن في السن بعد ما أمر بأن يسكنه هو وأمه في بلاد فقر وواد ليس به حسيس ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع فامتثل أمر ا في ذلك وتركهما هناك ثقة با وتوكلا عليه فجعل ا لهما فرجا ومخرجا ورزقهما من حيث لا يحتسبان .

ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذي قد أفرده عن أمر ربه وهو بكره ووحيده الذي ليس له غيره أجاب ربه وامتثل أمره وسارع إلى طاعته .

ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسرا ويذبحه قهرا : { قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى } .

فبادر الغلام الحليم سر والده الخليل إبراهيم فقال : { يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء ا من الصابرين } وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد .

قال ا تعالى : { فلما أسلما وتله للجبين } قيل : " أسلما " أي استسلما لأمر ا وعزم على ذلك وقيل : وهذا من المقدم والمؤخر والمعنى : " تله للجبين " أي ألقاه على وجهه

قيل أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده في حال ذبحه قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وقيل : بل أضجعه كما تضجع الذبائح وبقي طرف جبينه لاصقا بالأرض " وأسلما " أي سمى إبراهيم وكبر وتشهد الولد للموت قال السدي وغيره : أمر السكين على حلقه فلم تقطع شيئا ويقال : جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس وا أعلم .

فعند ذلك نودي من ا D : { أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا } أي قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر بك وبذلت ولدك للقربان كما سمحت ببدنك للنيران وكما مالك مبذول للضيفان ! ولهذا قال تعالى : { إن هذا لهو البلاء المبين } أي الإختبار الظاهر البين .

وقوله : { وفديناه بذبح عظيم } أي جعلناه فداء ذبح ولده ما يسره ا تعالى له من العوض عنه .

والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن رآه مربوطا بسمرة في ثبير قال الثوري عن عبد ا بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفا وقال سعيد بن جبير : كان يرتع في الجنة حتى تشقق عنه ثبير وكان عليه عهن أحمر وعن ابن عباس هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه رواه ابن أبي حاتم .

قال مجاهد : فذبحه بمني وقال عبيد بن عمير : ذبحه بالمقام .

فأما ما روى عن ابن عباس أنه كان وعلا وعن الحسن أنه كان تيسا من الأروى واسمه جرير فلا يكاد يصح عنهما .

ثم غالب ما هاهنا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم والإختبار الباهر وأن فدى بذبح عظيم وقد ورد في الحديث أنه كان كبشا .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان حدثنا منصور عن خاله نافع عن صفية بنت شيبة قالت : أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت : أرسل رسول ا A إلى عثمان بن طلحة وقالت مرة : إنها سألت عثمان : لم دعاك رسول ا A ؟ قال : قال لي رسول ا : [إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي] .

قال سفيان : لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا .

وكذا روى عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقا عند ميزاب الكعبة قد يبس .

وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل لأنه كان هو المقيم بمكة وإسحاق لا نعلم أن قدمها في حال صغره وا أعلم .

وهذا هو الظاهر من القرآن بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل لأنه ذكر قصة الذبيح ثم

قال بعده : { وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين } ومن جعله حالا فقد تكلف ومستنده أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات وكتابهم فيه تحريف ولا سيما هاهنا قطعا لا محيد عنه فإنه عندهم أن ا أمر إبراهيم أن يذبح ابنه ووحيده وفي نسخة من المعربة : بكره إسحاق بلفظة إسحاق هاهنا مقحمة مكذوبة مفتراة لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر إنما ذاك إسماعيل .

وإنما حملهم على هذا حسد العرب فإن إسماعيل أبو العرب الذي يسكنون الحجاز الذين منهم رسول ا A وإسحاق والد يعقوب - وهو إسرائيل - الذي ينتسبون إليه فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم فحرفوا كلام ا وزادوا فيه وهم قوم بهت ولم يقروا بأن الفضل بيد ا يؤتيه من يشاء .

وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم وإنما أخذوه - وا أعلم - من كعب الأحبار أو من صحف أهل الكتاب .

وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ولا يفهم هذا من القرآن بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل .

وما أحسن ما استدل به ابن كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله : { فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب } قال : فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له ؟ .

هذا لا يكون لأنه يناقض البشارة المتقدمة وا أعلم .

وقد اعترض السهيلي على هذا الإستدلال بما حاصله أن قوله : { فبشرناها بإسحاق } جملة تامة وقوله : { ومن وراء إسحاق يعقوب } جملة أخرى ليست في حيز البشارة قال : لأنه لا يجوز من حيث العربية أن يكون مخفوضا إلى أن يعاد معه حرف الجر فلا يجوز أن يقال مررت بزيد ومن بعده عمرو حتى يقال ومن بعده بعمرو وقال : فقوله : { ومن وراء إسحاق يعقوب } منصوب بفعل مضمر تقديره : ووهبنا لإسحاق يعقوب وفي هذا الذي قاله نظر .

ورجح أنه إسحاق واحتج بقوله : { فلما بلغ معه السعي } قال : وإسماعيل لم يكن عنده إنما كان في حال صغره وهو وأمه بجبال مكة فكيف يبلغ معه السعي ؟ .

وهذا أيضا فيه نظر لأنه قد روى أن الخليل كان يذهب في كثير من الأوقات راكبا البراق إلى مكة يطلع على ولده وابنه ثم يرجع وا تعالى أعلم .

فمن حكى القول عنه بأنه إسحاق : كعب الأحبار وروى عن عمر والعباس وعلى وابن مسعود ومسعود وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والشعبي ومقاتل وعبيد بن عمير وأبي ميسرة وزيد بن أسلم وعبد ا بن شقيق والزهري والقاسم وابن أبي بردة ومكحول وعثمان بن حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبي الهذيل وابن سابط وهو اختيار ابن جرير وهذا عجب منه وهو أحدث الروايتين عن ابن عباس .

ولكن الصحيح عنه - وعن أكثر هؤلاء - أنه إسماعيل عليه السلام قال مجاهد وسعيد والشعبي ويوسف بن مهران وعطاء وغير واحد عن ابن عباس : هو إسماعيل عليه السلام .

وقال ابن جرير : حدثني يونس أنبأنا ابن وهب أخبرني عمرو بن قيس عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال : المفدى إسماعيل وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود .

وقال عبد ا بن الإمام أحمد عن أبيه : هو إسماعيل وقال ابن أبي حاتم سألت أبي حاتم : وروى عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح أنهم قالوا : الذبيح هو إسماعيل عليه السلام وحكاه البغوي أيضا عن الربيع عن أنس والكلبي وأبي عمرو بن العلاء .

قلت : وروى عن معاوية وجاء عنه أن رجلا قال لرسول ا A : يا ابن الذبيحين فضحك رسول ا A .

وإليه ذهب عمر بن عبد العزيز ومحمد بن إسحاق بن يسار وكان الحسن البصري يقول : لا شك في هذا .

وقال محمد بن إسحاق عن بريدة عن سفيان بن فزوة الأسلمي عن محمد بن كعب : أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام - يعني استدلالة بقوله بعد العصمة : { فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب } - فقال له عمر : إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه وأني لأراه كما قلت .

ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علمائهم قال : فسأله عمر بن عبد العزيز : أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل وا يا أمير المؤمنين وإن اليهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر ا فيه والفضل الذي ذكره ا منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم .

وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة بأدلتها وآثارها في كتابنا التفسير و الحمد والمنة .

* * *